



اتصفت السياسة الروسية في سوريا باتباعها تكتيک الموجات التصعیدیة، وبدت كل موجة منفصلة عن الأخرى، سواء لجهة أهدافها القصیرة المدى، مثل إبعاد المخاطر عن مناطق تجمع الأقلیات، أو لجهة حجم الانخراط وتوعیة الأسلحة المستخدمة، وحتى طبیعة التفاعلات الجاریة مع اللاعینين الآخرين، سیاسیةً كانت أو عسکریة، فکما ناورت موسکو على خط واشنطن، لتغير مقاربتها عبر مؤتمر فيينا وقرار مجلس الأمن 2254، وصولاً إلى الاتفاق على خطة لوقف إطلاق النار، مارست على المقلب التركي سیاست الاستفزاز المدروسة تجاه تركيا، والتي انتهت بإسقاط طائرة السوخوي التي نتج عنها، لاحقاً، انفأء تركيا نهائیاً واستفراد روسيا بوضع قواعد اللعبة.

لكن، في رؤیة كاملة للمشهد، يتضح أن تلك الموجات ليست منفصلة، وهي سلسلة تواليیة، بحيث تهيئ السابقة لللاحقة، وإذا كانت الموجة الأخيرة المنظوية على تكتيک يهدف إلى إجهاض إمكانیة قیام تحالف إقليمي، بدأت تتبلور ملامحه، فإن النیة تذهب إلى الرغبة في إغلاق سلسلة الموجات، واحتتمامها بتغيير كبير بحجم تقسیم سوريا، يهدف إلى وضع اللاعینين الآخرين أمام أمرٍ واقع، يدفعهم إلى أحد خیارین: التعامل بواقعیة من لا حول له ولا قویة، أو إنقاذ ما يمكن إنقاذه من سوريا والمنطقة. وبذلك تكون موسکو قد انتقلت من مرحلة الاستثمار في الأزمة إلى مرحلة بدء جنی العوائد المتوقعة.

هل نضجت الحالة السورية لمثل هذا الخيار، أو التطور، ولم يعد مجدیاً تجرب خیارات أخرى؟

ليست الإشكالية في سوريا، بقدر ما هي عند روسيا، وتسریع موسکو الذهاب إلى هذا الخيار هو انعکاس لطبیعة الأزمة عندها، وليس لواقع سوريا، ذلك أنه ليس شرطاً أن تفضی أزمة في بلدٍ ما، حتى لو كانت حریاً أهلیة، إلى حالة انقسام، والدليل أن موسکو عملت على تثمير عناصر الانقسام في مفاصل الأزمة السورية، وتکریسها معطیاتٍ غير قابلة للإزاحة، وتجسد ذلك عبر إصرارها على توصیف بشار الأسد والمليشیات الشیعیة طرفاً طبیعیاً في الصراع، عبر خطة وقف إطلاق النار المتفق عليها مع واشنطن.

لكن، ما هي دوافع الكرملین ومحفّزاته للذهاب إلى مثل هذا الخيار الخطیر؟

ثمة مؤشرات عديدة، مصدرها روسيا نفسها، تفید بأن فلادیمیر بوتين لا يملك ترف الوقت الكافی، لانتظار تحقيق أهدافه في سورية، إجراءات أمیرکا و"الناتو" تخنقه. وقد بدأت النتائج السلبية لعقوبات أوروبا تظهر بقوة على اقتصاده، وشكل عامل انخفاض أسعار الطاقة متغیراً سلیباً طارئاً ومدمراً.

وقد ساهمت هذه المتغيرات في التأثير على الاستراتيجية الروسية، حتى على المديين، القصير والمتوسط، وبأسرع مما كان يتوقعه خصوم روسيا، ووضعت نفوذ موسكو في دول الجوار "التي تعتبر المجال الحيوي للأمن القومي الروسي" في وضع خطير، بل وأثرت على استراتيجية موسكو في التحول إلى قوةٍ معتبرةٍ في النظام الدولي من خلال استثمار عناصر قوتها المالية والعسكرية، ذلك أن إدارة بوتين ارتكزت، في بناء نفوذها، وقوتها من خلال القروض والهبات وشروط ميسرة، بهدف تشكيل حواجز لـ دول المستفيدة على اتخاذ قرارات سياسية خارجية، بما يتماشى مع الاحتياج الروسي، واحتمالية تراجع الدعم من شأنه أن يخرج تلك الدول من دائرة النفوذ الروسي، والبحث عن مصادر غربية، مثل روسيا البيضاء التي تعيش على الدعم، وكذلك أرمينيا وقيرغيزستان وكازاخستان، وهي دول تقع في نطاق النفوذ الروسي المباشر، وبهم موسكو بقاء هذه الدول بعيدة عن التأثير الغربي، وخصوصاً تلك الواقعة في الطرف الأوروبي، كما سعت موسكو إلى إتباع الآليات نفسها مع دول أوروبية، صربيا وبلغاريا واليونان وال مجر، لتحقيق أغراض استراتيجية معينة في مواجهة حلف الناتو والغرب، وحتى دول ذات تأثير إقليمي وموقع استراتيجي، مثل مصر وإيران.

بوتين الذي على اطلاع تام على وضع احتياطاته المالية، وتراجع الصناعة الداخلية، يحركه هاجس أن الغرب يدير عملية استنزاف له في سوريا. وبالتالي، إفشال كل مناوراته وجهوده على مدار السنوات السابقة، ودفعه إلى خفض سقف توقعاته في التفاوض معه في الملفات الأخرى. لذا، فهو يحاول الدفع بـ متغيراتٍ مفاجئةٍ، تعيد الغرب إلى سكة الصدمة، وتدفعه إلى تغيير سياساته تجاهه، والدفع باتجاه التقسيم وتحطيم النظام الإقليمي الشرقي أوسطي، أحد أهم أدواته الصراعية وأوراقه التساؤمية.

على ذلك، يبدو بوتين محكوماً بـ زمن محدد، يكون خلاله قد رسم تماماً جغرافية تمويهه ونفوذه في سوريا، المناخ الاستراتيجي الراهن مقدم على تغييراتٍ، تتمثل بـ قيادة أميركية جديدة. الآن هو قادر بـ تكتيكات دبلوماسية على مواجهة إدارة باراك أوباما، وإنفاذ جهدها، في حين أنه سيضطر إلى ما هو أكثر من ذلك، مع إدارة جديدة، بما يفوق جهود روسيا وقدراتها. كما تواجه موسكو بدايات تمرد أوروبية، من شأن تلاقتها مع اتجاهات التحركات العربية والإقليمية، ووصولها إلى حالة من التبلور، التأثير بـ درجة كبيرة على مشاريع موسكو في سوريا والمنطقة، وهذا ما يشكل حافزاً لإدارة بوتين، لكي تسرّع بـ تغيير المعطيات في سوريا، بما يمكنها من إجهاض أي إمكانية لـ تخريب سيناريوهااتها السورية.

وتنطلق استراتيجية موسكو في الاستفادة من خطة وقف إطلاق النار، والانتقال إلى المرحلة التالية في استراتيجيةيتها التقسيمية، من جملة ركائز، ستبدأ معالمتها في الظهور في المرحلة المقبلة:

- **إيجاد حالة من الفوضى في سوريا بـ درجة أكبر**، بإيجاد دينامية صراعية بين الأطراف المعارضة للأسد، بذرية التفريق بين إرهابي ومعتدل، وبالتمييز إلى وجود أطراف سورية معارضة، تتعاون مع الخطة الروسية، وتنسق معها على الأرض.

- **العمل على خطوط الصدع بـ العنف**، مثل تظهير حدود الإقليم الكردي في سوريا، وفرضه واقعاً منجزاً، وتهديد طرق المواصلات في البحر الأبيض المتوسط، بذرية الحفاظ على أمن القواعد الروسية فيه. وهذا نمط من تزخيم فعالية الوجود الروسي ورفع سقف التفاوضي، بما يضمن الدفع إلى ترتيباتٍ تستطيع روسيا من خلالها، ترسیخ مكاسبها، والانتقال إلى مرحلة ما بعد التقسيم.

- **تحييد القوى الإقليمية ما أمكن، على الأقل مدة محددة**، حتى تظهر ملامح إجراءاتها، وذلك من خلال جملة من التكتيكات. العزل كما هو حاصل مع تركيا، أو عبر التطمئن والتسكين، كما هو حاصل مع الأطراف العربية. وعندما، يصبح من المستحيل على هذه الدول القيام بأكثر من إجراءات دفاعية داخل حدودها، لن يكون لها تأثير على خريطة تحركات موسكو في سوريا، ولا على المشهد الذي ستصنعه هناك.

- استدراج المجتمع الدولي إلى قبول حالة التقسيم، بعد أن يجري تبئيسه من إمكانية نجاح أي خياراتٍ بديلة، وتصوير التقسيم بوصفه الخيار الأقل سوءاً، وذلك للحفاظ على الأقليات والمجتمعات المدنية في سوريا.  
ما هو المدى الزمني لصناعة هذا المشهد؟

نحن إزاء مشهدٍ منهك، لا يحتاج تحطيمه أكثر من مدى زمني بسيط، وهو الزمن اللازم للإعلان عن البدائل، ولن تكون مرحلة فحص الهدنة، الفاشلة أصلاً، سوى فترة لإقناع إدارة أوبياما بعدم وجود خيارات بديلة، المرحلة التي تلي ذلك ستتركّز على المحافظة على هذا التشكّل الناتج وترسيخه، وستتمكن روسيا، حينها، من تطوير استراتيجيتها وتحويلها إلى طور الإنتاج، لأنّه سيكون لديها معطيات جديدة: وجود ثابت في المتوسط، يحمي بوتين من التداعيات الداخلية، ووضع مربك للأطراف الخارجية التي ستجد نفسها أمام واقع تهديدي، يدفعها إلى البحث عن مخارج بالنسبة لها، وليس للحالة السورية، كما يدفعها إلى التوافق مع الاستراتيجية الروسية، ولو بالإكراه، نتيجة سلسلة التداعيات المتوقعة. بالطبع، لن تكون روسيا محميّة من التداعيات، ولن تكون في وضع مريح بشكل مطلق، لكن الحسابات الروسية تقوم على قاعدة أنّ هذا الخيار هو أفضل الخيارات السيئة الممكنة.

وليس من الواقع تصور أن روسيا ستضع نفسها في مأزق، تحت ساكين مختلف الأطراف، كما أن الجميع، باستثناء روسيا، ليست لديهم رؤية واضحة. لذا، لن يكون مستغرباً تطوير هذه الرؤية، وتحويلها إلى واقع، ولا يمكن لموسكو صرف كل تلك الموارد وتذخيّم خطوط القتال واللعب على حافة الهاوية، من دون توقيع مردود بحجم اقطاع مساحة على المتوسط بمثابة ملكية خاصة وحصرية لها.

ما العمل؟ لا حل، في مواجهة سياسة الموجات الروسية، سوى وجود مبادرة من الدول الإقليمية، تستثمر مناخ الاضطراب والانقسام في إدارة أوبياما، وتشجّع أوروبا على تحويل تململها إلى سياسات إجرائية. مبادرة تصل إلى حد اللعب على الحافة بمنطق بوتين نفسه. مع الانتباه إلى حقيقة نجاح استراتيجية روسيا حتى الآن في سوريا تعود إلى أن بوتين يدير استراتيجيته بخلط من سياسات حافة الهاوية مع الدول الإقليمية، واستخدام تكتيكات مع أميركا تقوم على إقناع إدارة أوبياما، بأن موسكو تعمل على إراحتها من الصداع الشرقي أوسطي.

- يجب كسر المعادلة الروسية القائمة على رأي عام نام، ومناخ استراتيجي سهل وإجراءات إقليمية متاخرة. كسر أحد أطراف هذه المعادلة سيدفع إلى انهيار التقدم الروسي.

مشكلة المواقف الإقليمية والعربيّة أنها متاخرة، وبدل أن تكون أفعالاً تحول إلى ردات أفعال متاخرة. وثمة فارق، من حيث القوة والتأثير بين الفعل ورد الفعل، لأن الفعل يصنع قواعد اللعبة، ويحدّد قواعد الاشتباك، في حين يأتي رد الفعل لمحاولة تقليل الخسائر أو تعديل ما أمكن، ودائماً يخسر.